

آثار الحياة الروحانية

بالإسلام يطرأ الموت على ميولنا النفسانية، ثم بالدعاء نحيا من جديد. وهذه الحياة الثانية تستلزم نزول الوحي الرباني. والوصول إلى نفس هذا المقام يسمّى اللقاء الإلهي.. أي لقاء الله ومشاهدته. ومتى بلغ الإنسان هذه الدرجة يتصل بالله اتصالاً وكأنه يراه بعينه، ويُعطى قوةً، وتُثار حواسه وملكاتة الباطنة كلها، وتبدأ الحياة القدسية تجتذبه بكل شدة. وهناك يصبح الله - تعالى - للإنسان عيناً يبصر بها، ولساناً ينطق به، ويداً يطش بها، وأذناً يسمع بها، وقدمًا يمشي بها. وإلى هذه المرتبة تشير الآية: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الفتح: ١١).. أي أن يده هي يد الله التي فوق أيديهم، وكذلك الآية: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (الأنفال: ١٨).

وخلاصة القول إن الإنسان في هذه المرتبة يتحد بالله - تعالى - اتحاداً كاملاً، وتسري مشيئة الله الخالصة في كل ذرة من كيانه، وتبدو حينئذ قواه الأخلاقية - التي كانت من قبل واهنة - كالجبال الراسيات، ويصبح عقله وفراسته غايةً في اللطف. وهذا هو المراد من الآية: ﴿وَأَيُّدُهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ (المجادلة: ٢٣).

ففي هذه الحالة تتدفق أنهاراً من محبة الله وعشقه.. بحيث يصبح سهلاً هيناً على الإنسان أن يموت في سبيل الله ويتحمل صنوف العذاب والخزي والهوان لأجله، وكأن ذلك كله لا يساوي عنده كسراً قسماً. إنه ينجذب إلى الله انجذاباً ولا يدري من يجذبه. إن يداً من الغيب تحمله وتسير به؛ وإن تحقيق مشيئة الله وإرادته يصبح أصل أصول حياته. وفي هذه المرتبة يرى هذا الإنسان ربّه حياً قريباً كما يقول سبحانه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٧)؛ وكما أن الثمرة إذا نضجت لم تلبث أن تسقط من تلقاها، فكذلك الإنسان عندما يصل إلى تلك الدرجة.. تنعدم علاقته السفلية كلها.. وتزداد صلته بربه عمقاً وتوثقاً، ويتعد عن المخلوق بعداً، ويتشرف بكلام الله وحديثه.

باب الوحي مفتوح

والآن أيضاً لا تزال الأبواب مفتوحة للوصول إلى هذه المرتبة كما كانت مفتوحة في السابق، ولا ينفك الله يهب هذه النعمة لمن ينشدونها كما كان يهبها من قبل. ولكن هذا الصراط لا يهتدي إليه الإنسان بثرثرة اللسان فقط، ولا يُفتح هذا الباب بكلمات فارغة وبأمور لا أساس لها. إن الطلاب كثيرون، ولكن قلّ من يجدون.. فما السبب في ذلك يا ترى؟ إنما السبب أن بلوغ هذا المقام موقوف على كفاح صادق وتضحية مخلصّة. لن يتم شيء بمحض الثثرة ولو قتمت بها إلى يوم القيامة. إن أول شرط للسلوك في هذا السبيل أن يضع الإنسان - بكل صدق - قدمه في نار يفر منها الآخرون خائفين. إذا لم يكن حماساً عملياً فلا نفع في هتافات فارغة. يقول الله في هذا الشأن: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٧) أي لو سألك عبادي أين أنا؟ فقل لهم: إنني قريب جداً منهم. أستجيب دعاء من يدعونني. فعليهم أن يبتغوا وصالي بالدعاء، وليؤمنوا بي كي يفلحوا.

(فلسفة تعاليم الإسلام، الخزانة الروحانية ج ١٠ ص ٣٩٤ - ٣٩٦)